شكوى لطيفه

بزغت شمس الحسناء البهية على ارض سوريا تزنو باشعتها الذهبية على المرتفعات الشامخة . اطلت وقد مرّت خيوطها العسجدية على الابواب المفتوحة لاستقبالها ولجت من النوافذ والكوى لتبدد ظلمات الغباوة والجهالة . لتنير الافكار السائدة عليها الاوهام المهلكة . لتطهر عفونة العادات الفاسدة لتميت جراثيم الخرافات والتقليدات المضرة وقد حملت معها حرارة الاجتهاد والغيرة كي ينهض الجميع من سبات الكسل الى العمل والنشاط

اجل قدمت تلك الهيفاء النشيطة وكنت قد ودعتها على امل اللقاء واودعتها رسالة المحبة الى ذات جنسي ونظرة في تاثيرهن كما رواه بعض اولي الفضل . عادت فامرعت للقاها وبعد ان حييتها تحية الاحبة جلسنا واخذت نطرفني بحديثها الشهي وتقص عليّ ما لاقته في جولانها في بعض الانحاء

ولما كان البعض من حديثها اثار فيّ الشعور بعواطف الحزن والغيظ . ومنه ما طاب ولذّ ذكره مما يطرب الفواد استبشاراً ببلوغ الامال استأذنتها في نشره للعموم بياناً للحقيقة واشهاراً لذوي الفضل وتشهيراً لمريدي الانحطاط

قالت . تعلمين ايتها الصديقة ان غايتي الوحيدة التي كرست نفسي لها هي خدمة الجنس اللطيف ولذلك قصدتهن قبل الكل راجية منهن التفاتا خاصاً لي . ولكن يا الفشل فان بعضهنّ نظر اليّ اشمئزازاً ونفوراً ورمقني غيرهن حسدا لا سروراً ومنهن من ضحكن جاهلات سمو مقامي . فقد اقتربت من احدى السيدات المثريات التي اذ نظرت اليّ اعرضت عني قائلة اني اكره المجلات والجرائد فيا لله ما صار اكثرها . ملأت البلاد وضايقت العباد فلا اريد اقرأ منها شيئاً لئلا

يضيع وقتي سدى فابتعدي عني . فاملتها ملياً فرايتها من اهل الزي وعاشقات المودة تغير ثوبها عدة مرات في اليوم دون ملل وتصرف معظم اوقاتها امام المرآة لاجل عقص شعرها وتحسين وجهها . فعذرتها على هذا الصدود لان افكارها متجهة نحو تلك الامور المذكورة فكيف يمكنها التجلد والثبات على المطالعة

قالت ثم توجهت الى بعض الاندية العلمية الى احدى خادمات العلم وقلت في نفسي ان هذه ستكون نصيرتي فتعضدني في مشروعي المفيد . ولكن يا لخيبة الامل حين نظرت اليّ ازوراراً وقالت يا ترى ما الفائدة من قراءة الحسناء فليس فيها شيء جديد لان كل ما تذكره معلوم لدينا . التربية . المنزل . الصحة . المراة . العلم . كل ذلك صفصفة كلام وتسميق عبارات تشفع . واقول لك بحق اني حزنت عليها اذ كان الاجدر بها ان ترحب بي تشجيعاً لي ولغيرها من بنات الجنس . غير اني وجدت لها عذراً وان كان ليس بالممدوح الا وهو روح الحسد القبيح اجارنا الله منه خرجت من عندها على اني اصادف من هي افضل منها . فاستقبلتني في احد البيوت سيدة على محياها سمات الاناس هشت في وجهي وبشت فاستبشرت خيراً . ولكن ما عتم ان ردّت طرفها واجابت هل تستحق هذه القيمة المفروضة فالرسم المعين كبير فلو كان اقل كنا نقبلك وكنت تروجين اكثر . فاندهشت من قولها وهي تبذل مقدار ثلاثة اضعاف الرسم واكثر على تخريج ثوب لها وتدفع اجرته للخياطة كية باهظة من طيب خاطر . ولا تضن ان تصرف على زينتها ما يساوي ضعفي رسم الحسناء فاسفت لان اكثر السوريات لم يعتدن بعد على حب المطالعة الى درجة بذل شيء زهيد في سبيلها . اسفت لانهن لا يرغبن في تزيين عقولهن مقدار ذرة مما يبذلنه على تزيين اجسادهن . أليس يا صديقتي هذا سبب من اسباب تاخرهن عن بعض نساء الشعوب الراقية التي تبذل كل مرتخص وغال في سبيل

ترقي الافكار . ولكن اسمعي ما هو اغرب من ذلك وهو قول سيدة زرتها ايضاً . ولما عرفت بمشروعي قالت اف ما اكثر الكتبة في هذه الايام فالكتابة والجرائد اصبحت تجارة لكسب المال ولكنها تجارة ومهنة الكسالى لانها سهلة . وقد غرب عن بالها ان صناعة الانشاء اشرف المهن واعسرها فلا يتقنها الا اهل الجد وذوو العقول الثاقبة فضحكت من زعمها وتركتها اذ عرفت ان الكلام يذهب ادراج الرياح

ثم انصرفت الى نادٍ فسيح الجوانب وجدته حافلاً بنخبة من سادة وسيدات وهم جلوس حول موائد انيقة . فتفرست بهم وناجيت نفسي بنوال الحظوى عندهم . ولكن يالليعيرة التي اصابتني عند ما رايتهم يلتفتوا الي بل استمروا منكبين على عملهم شديد الانكباب . وماذا تظنين كان عملهم يا ترى ؟ ليس هو الا لعب القمار الداء العصري الذي عمّ بلاؤه . واشد ما كانت حيرتي اني رايت سربا من الجنس اللطيف مكبات وعلائم الهم والافتكار بادية على وجوههنّ وقد تغيرت تلك الوجوه عن جمالها انذهلت كيف يبذلن دراهمهنّ جزافاً وغير اسفات على ضياع وقتهن الثمين . حزنت من تسرب هذه العادة السيئة بين الجنس اللطيف التي يفتخرن بها ويتبارين فيها وهي من بعض الاقتباسات المذمومة التي جرت الى بلادنا مع تيار التقليدات الفاسدة . فاسرعت وخرجت من ذلك النادي كاسفة البال

هذا يا عزيزتي جزء يسير مما لقيته من مشاهدة الصدود وقلة المبالاة بي حدثتك به استغراباً منه . غير ان ذلك لم يثن عزمي بل بقيت مثابرة على خدمتي ثابتة في مهمتي . فاني وان لم اعدم ذاماً غير اني لم احرم والحمدلله من فضلاء وفاضلات وادباء واديبات ادركوا قصدي فاخذوا بناصري وتلقوني باللطف والايناس واحلوني على الرحب والسعة مما ملاء فوادي شكراً وحبوراً . ولا يسعني الوقت ان اذكر لك كل ما لقيته من الاكرام وما سمعته من كلمات التشجيع